نبوليون والعلم والعمران

(٤)

ان اول من اطلق كلمة «الثورة الفرنسوية» على الحادث الجلل الذي حدث في فرنسا فغير نظامها السياسي والاجتماعي اخطأ في التعبير لانهُ وجه الذهن الى ما تخلل ذلك التغيير او الانقلاب من الفظائع وصرفهُ عن الاعمال الجليلة التي نبَّهت الناس الى منكرات ذلك العصر وجعلتهم يغضبون للعدل غضبة دكَّت معاقل الظلم وبنت على انقاضها صروح الحرية والاخاء والمساواة. فلما اشتدَّ ساعد نبوليون كان يعلم ان الثورة التي ثارها الشعب الفرنسوي يبررها ما اصاب الشعب من الحاكم والكاهن من ضروب الخسف والصغار وان هيجانهُ سوف يخمد اذا وجههُ الى عمل جليل ينفث فيهِ غيظهُ كتدويخ الممالك ونزع ما فيها من ضروب الظلم والفوضى. وكان يعلم ايضاً ان العلماء والادباء الذين كان لهم في الانقلاب الفرنسوي القدح المعلى هؤلاء انفسهم يعضدونهُ في نشر لواء العلم والعمران. فلم يكد يصمم على تدويخ مصر لنيل عرش المماليك وفتح الطريق الى الهند حتى التفَّ حولهُ جماعة من اكبر علماء فرنسا وعملوا في هذا القطر اعمالاً علمية وصناعية لم يعمل عشرها غيرهم من العلماء في مثل المدة القصيرة التي اقاموها في هذا القطر كما تشهد كتبهم الممتعة التي وضعوها في ذلك. وكان هو يكرم العلماء ويجلُّ قدرهم وغيرهُ كان يزدريهم وينكل بهم

لما تعب دولوميه Dolomieu الجيولوجي من الاقامة في القطر المصري واضطر ان يعود الى فرنسا انكسرت بهِ السفينة فاسرهُ ملك نابلي وسجنهُ فجعل يكتب مذكراتهِ العلمية على حواشي كتبهِ وبقي في السجن الى ان فاز نبوليون في معركة مورنجو فجعل اطلاق سبيله من اول شروط الصلح اكراماً للعلم

وكان يتطلع الى كل اكتشاف جديد فلما بلغهُ ان ڤولطه الايطالي اكتشف الوصيف الكهربائي استدعاهُ اليهِ ورجعل الانستتو يجلس جلسة خاصة بهِ وحضرها بنفسهِ وامر ان يصنع لهُ وسام من الذهب ويكتب اسمهُ عليهِ ثم جعلهُ عضواً في مجلس الشيوخ ووهبهُ لقب كونت واعطاهُ مبلغاً طائلاً من المال وسيقاً من اكرامهِ

جومار

مونج

برتولت

لاري

شبتال

كيبه

متحف اكتوبر ١٩٣
امام الصفحة ٣١٦

لهُ. ولما شبت النار في المعرض الذي اقيم في كومو تذكاراً لفولطه سنة ١٨٩٩ كان هذا السيف فيهِ وكان فيهِ ايضاً صورة فولطه وهو يشرح رصيفهُ لنبوليون فانقذا من النار مع بعض التحف التي انقذت منها

ووضع نبوليون جائزة سنوية مقدارها ٣٠٠٠ فرنك تعطى لمن يكتشف اتفع اكتشاف متعلق بالكهربائية الفلطائية. ومن الذين نالوا هذه الجائزة الاستاذ دافي الانكليزي نالها سنة ١٨٠٨ اي في عهد نبوليون لانهُ اكتشف الصوديوم والبوتاسيوم بالكهربائية. فنقم بعض الانكليز عليهِ وعدوهُ خائناً لانهُ اخذ جائزة فرنسوية. فاعربوا عن صغر نفوسهم ولا سيما اذا قويلت بنفس نبوليون الذي كان يعلم ان الانكليز الد اعدائهِ ولكن ذلك لم يمنعهُ من الاعتراف بفضل رجل عالم من رجالهم

ولما بلغهُ اكتشاف كلادني الالماني للاشكال الصوتية امر علماءهُ ان يكتبوا لهُ تقريراً عنهُ ثم امر ان تترجم رسالة كلادني في هذا الموضوع الى الفرنسوية ووهب مترجمها ٦٠٠٠ فرنك

وكان يعنى بكل بحث علمي سواء كان في الفلك او الكيمياء او الفسيولوجيا او غير ذلك من العلوم. ويعضد الاعمال الزراعية والصناعية كزرع النيل والبحر. وهو الذي اقام تذكاراً لدسول وبيشا من علماء التشريح والفسيولوجيا في مستشفى اوتل ديه اكراماً لهما

ولم تكن عنايتهُ بالمستنبطات الصناعية اقل من عنايتهِ بالمكتشفات العلمية. فلما استنبط جاكار نولهُ الذي ينسج بهِ النسيج المعرَّق غضب عليهِ مجلس ليون الصناعي واضطهدهُ لكن نبوليون حماهُ وامر ان يعطى كل ما يحتاج اليهِ لاتقان نولهِ ثم اصدر مرسوماً امبراطورياً من برلين سنة ١٨٠٦ منحهُ بهِ ٦٠٠٠ فرنك معاشاً سنوياً و٥٠ فرنكاً على كل نول يصنع مثل نولهِ. ووعد ان يعطي مليون فرنك من يستنبط آلة لغزل الكتان فاستنبطها فيليب ده جرار الكيماوي

وكان في فرنسا مدرسة هندسية شهيرة وهي مدرسة الكك والكباري التي انشئت سنة ١٧٤٨ وقد تخرَّج فيها جماعة من اكبر المهندسين فاستعان بهم على انشاء المرافئ والجسور والكك والترع فاوصل نهري الرين والرون

باتهر الساون والسين والاورك وانواز . وانشأ المرافىء في دنكرك والهاثر وديب ومنفلور وبرست وحاجز الماء في شربورج

رأى شبتال الكيماوي يوماً في ملمارون فقال لهُ اود ان اجعل باريس اجمل عاصمة في الدنيا فما رأيك في جلب الماء اليها . فقال شبتال إما ان تخرج اليها الماء بآبار ارتوازية او تجره اليها جرًّا من نهر الاورك. فقال نبوليون «ماء الاورك فاذهب واحضر خمسماية عامل واشرع في العمل من الغد » . وقد تم جر الماء الى باريس فبلغت نفقات جرهِ خمسماية الف جنيه

وترتب اليهِ رجال العلم مثل لابلاس وغيتون ده مورفو وكيفيه وفوركروى وشبتال واعطاهم مناصب عالية في الحكومة وجعل لابلاس رئيساً لمجلس الشيوخ. وكان هو احفظ لمقامهِ ومبادئهِ من بعض هؤلاء العلماء حتى قال انهم يستحقون الاحتقار الذي يبتونهُ في صدرهِ لهم لتقلبهم في آرائهم مثل لابلاس الذي كان ثورياً فجمهورياً فملكياً فامبراطورياً . ولكن بعضهم مثل كيفيه وشبتال كانوا من اخلص الناس لهُ واصدقهم طوية واعلاهم همة . اما شبتال فبلغ بعلو همتهِ مبلغاً لم يبلغهُ غيرهُ فلما خلف لرسيان بونابرت في وزارة الداخلية انشأ مدارس الصناعة وعضد الفنون والصنائع وغرف التجارة واقام على عهده من بذل كل قواهُ في خدمة وطنهِ حتى بعد عودة الملكية ونزع لقب الشرف منهُ

قال نبوليون مرةً قولاً يؤثر عنهُ وهو « ان الفوز الصحيح الفوز الحقيقي الذي لا محل فيهِ للاسف هو الفوز على الجهل » . وهذا هو الفوز الذي يحرزهُ العلم وهو اثبت شيء بين كل الاعمال العظيمة التي قام بها نبوليون

هذا من حيث خدمتهُ للعلم اما خدمهُ لعمران العالم بنوع عام ولعمران فرنسا بنوع خاص فتظهر من الاصلاحات التي ادخلها في فرنسا وفي كل البلدان التي فتحها. فانهُ حيثما ذهب حرَّر الفلاحين من رق العبودية . فان فلاحي اوربا كانوا كلهم عبيداً للملاَّك فحررهم وادخل اساليب جديدة في الزراعة والصناعة صلحت بها حالهم. والسكك التي انشأها في اوربا من اولها الى آخرها هي افضل ما اشيء فيها من السكك حتى الآن لانهُ كان يعلم ان تسهيل المواصلات رائد العمران . واهم من ذلك كلهِ انهُ ادخل نظاماً مالياً معقولاً مدققاً في كل حكومات اوربا ومنع

الرشوة والعنيفة وفرض الضرائب فرضاً عادلاً محدوداً وانشأ بنك فرنسا ووضع المعاملات على قواعد ثابتة

وتظهر مقدرتهُ المالية من ان دين الحكومة الانجليزية الذي استدانتهُ في محاربة فرنسا بلغ ٨٤٨ مليون جنيه سنة ١٨١٧ واما دين الحكومة الفرنسوية التي حاربت انكلترا وكل اوربا فلم يبلغ ٢٠٠ مليون جنيه حتى سنة ١٨٣٠ مع انها دفعت غرامة مالية بعد معركة وترلو . ولما دفعت هذه الغرامة كان بنك انكلترا قد توقف عن الدفع وكان دين فرنسا الذي فائدتهُ ٥ في المائة مثل دين انكلترا الآن الذي فائدتهُ ٥ في المائة في مقدار ما يحط منهُ . وهذا من اقوى الادلة على مقدرة نبوليون المالية وحكمتهِ الاقتصادية . واي دليل اعظم من انهُ خلّص فرنسا من العسر المالي وجعل ماليتها افضل من مالية كل الدول الاوربية وذلك بعد حروب دامت اثنتين وعشرين سنة

ومما يقضي بالعجب ويشهد لنبوليون بالمقدرة الفائقة في سياسة الملك ان فرنسا فقدت في حروب السنوات العشر الاخيرة قبل معركة وترلو نحو مليون ونصف من ابنائها ومع ذلك بقيت قادرة سنة ١٨١٥ على ان يكون فيها جيش عامل كامل العدة يبلغ مائتين وخمسين الفاً

ثم ان السبب الاكبر الذي دعا الى الثورة الفرنسوية كان فداحة الضرائب وتحميلها العامة دون الخاصة . فما فعلهُ نبوليون بتعديلها وتوزيعها على جميع طبقات السكان توزيعاً عادلاً وما نتج عن ذلك من احلال السعة في فرنسا محل الضيق والعدل محل الظلم وتحرير الفلاحين عامة سهّل على سائر الممالك الاوربية الاقتداء بفرنسا وتحرير فلاحيها وازالة السبب الاهم من اسباب الثورة

ومما فعلهُ من هذا القبيل ايضاً انهُ عين الجباة (الصيارفة) تعييناً واقام مجلساً لمراجعة حساباتهم واوجب على كل موظف ان يدفع تأميناً مالياً حتى اذا ثبت عليهِ انهُ ارتشى او اخلّ في واجبات منصبهِ اضاع هذا التأمين . وكان عدد مستخدمي الحكومة في عهد الملكية ٢٠٠٠٠٠ فانحط عددهم في عهده الى ٥٠٠٠ لاغ ولم يكونوا يتذمرون من كثرة العمل لان الاعمال كانت موزعة عليهم توزيعاً عادلاً

وفي عهد الملكية كان الفلاّح يدفع الى الحكومة ٨١ في المائة من دخله

قصارى ما يدفعهُ في عهد نبوليون ٢١ في المائة فقط . ومن ثمَّ نفهم سبب الثورة السابقة وسبب الخلود الى السكينة في عهد نبوليون والسير معهُ كيفما سار

هذه اهم الاصلاحات العمومية ولكن نبوليون لم يكتف بها بل اهتم برفع المغارم الخصوصية التي تنال كل فرد في معاملاتهِ وتسلبهُ حريتهُ دينية كانت او قضائية او صناعية فان غرامهُ الاكبر كان حب التنظيم والمساواة . وحد الجيش فوضى فتركهُ آلة وطنية دموقراطية تضطرم في صدره الحمية الوطنية يذهب الى القتال شاعراً ان ما يقاتل لاجلهِ اثبات حق او دفع مظلمة . كانت حكومة فرنسة تحسب ان المجد موروث لا مكتسب والعظامي فوق العصامي . اما نبوليون العصامي فاختار قوادهُ العظام عصاميين مثلهُ . مسينا كان ابن خمار وناي ابن نجار ولانفر ابن بطحان وموراً ابن جابي ولان ابن سائس واوجرو ابن بناء . جيشٌ قوادهُ مثل هؤلاء واكثرهم شبان يشعر رجالهُ بالحرية والمساواة وحيثما سار تنفتح القلوب لهُ وتحنو كل نفس عليهِ . تتقدمهُ نار الحمية الوطنية فتنير سبُل الناس وتحرق ما فيها من المنكرات . فاستردت رجيو وفرارا ومودانا وبولونا مجد العصور الوسطى واعادت ايطيريا ودلماشيا امجاد روسية واستخرجت لمبرديا التاج القديم الذي توجت بهِ شارلمان ووضعتهُ على رأس نبوليون لانها عدتهُ خير خلف لخير سلف

وقد ابدى رحب الصدر هذا وسعة النظر في سياستهِ الادارية والقضائية فالحكام الذين اختارهم كانوا افضل الرجال الذين استطاع الوصول اليهم . وكان بعيداً عن التعصب الديني كما هو معلوم من السياسة التي اتبعها في القطر المصري . فاقام على ادارة جامعة باريس كيفيه العالم البرتستاني وبونالد العالم الكاثوليكي . لانهُ كان ينظر الى كفاءة الانسان لا الى شيء آخر

وقانون نبوليون وجوقة الشرف والليسيه خير ما تحفظهُ الدموقراطية تذكاراً خالداً لنبوليون . والحكومة النيابية والانظمة الادارية والقضائية والمالية كلها من اوضاع نبوليون . والنظام الذي وضعهُ في بلجكا وايطاليا هو النظام المتبع حتى الآن وبهِ اقتدى كسوث ومزيني وغاريبلدي وكل الذين ثاروا على الاستبداد وثلوا عروشهُ . واليهِ يرجع فضل اقامة الدموقراطية في اوربا وتعزيزها

هذه خلاصة موجزة من تاريخ نبوليون ومما فعلهُ للعلم والعمران

تمثيل السلام . نبوليون بين غادتين

مقتطف أكتوبر ١٩٢١
امام الصفحة ٣٢٠

لباس نساء القبيلة الساكنة في باي طاق

منظر كرمنشاه

مقتطف اكتوبر ١٩٢١

امام الصفحة ٣٢١